تجليات ظاهرة التخالف الصوتي
– في اللغة العربية –

الأستاذة : سهل ليلى
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر-بسكرة (الجزائر)

ملخص:

نميل في حياتنا العملية إلى مبدأ السهولة والتيسير للوصول إلى مقاصدنا سعيا وراء تحقيق أفضل النتائج، فجاءت هذه الدراسة لتوضح أن تجليات ظاهرة التخالف الصوتي في اللغة العربية تهدف إلى تحقيق سهولة النطق واقتصاد الجهد، لهذا نلحظ أن الكثير من الممارسات اللغوية تتجه إلى تحقيق الحدود العليا من الأثر عن طريق اختزال بعض الجهود المبذولة.

Résume :

Nous avons tendance sur le principe d'accès facile de nos intentions à la poursuite d'obtenir de meilleurs résultats . Cette étude vient de mettre en eudence les manifestation du phénomène de différence ovelique dans la langue arabe et son rôle dans la réalisation de la facilité de prononciation et de l'économie d'effort . Pour ce but , beaucoup de pratique s'orientent vers les frontières suprêmes de l'effet grâce à la réduction de certains efforts fournis .

مقدمـــــــــة:

ذهب كثير من المعنيين بالبحث اللغوي إلى أن الجانب المنطوق في اللغة يحظى بحرية الحركة الانسيابية أكثر مما يحظى به جانبها المكتوب، فضلا عن طبيعة اللغة في تركيبها الصوتي وبنيتها التي تمر بمسارب سياقية واسعة، لا تظهر في سلسلة الجوانب المكتوبة فيها. ولعل مرد ذلك إلى أن بطبيعة أصواتها المنطوقة تخضع لكثير من النمو والاتساع.

و ترتبط التغيرات الصوتية بالسياق الصوتي، وتحددها طبيعة الفونيمات المحيطة بالفونيم المتغير. وتظهر في صور عديدة منها ظاهرة التخالف الصوتي أو المخالفة الصوتية.

مفهوم المخالفة الصوتية Dissimilation:

يعني المصطلح حدوث اختلاف بين صوتين متماثلين في الكلمات المشتملة على التضعيف، وذلك بأن يتغير أحد الصوتين المضعفين إلى أحد أصوات المد: الألف والواو والياء أو أحد الأصوات الشبيهة بها وهي الأصوات المتوسطة أو المائعة ممثلة في اللام والراء والنون والميم[1].

و لقد نشأت هذه الظاهرة بسبب الثقل الناشئ عن تجاور صوتين من مخرج واحد، ولعل ذلك يبدو واضحا في قول "ابن جني":"و من ذلك استثقالهم المثلين حتى قلبوا أحدهما" ، ووصفه في موضع آخر بـــ : (استثقال تكريره)، وصرّح أيضا بعبارة التخفيف إذ قال: " فأما أمليت فلا إنكار لتخفيفه بإبداله". فإن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى مجهود عضلي للنطق

بهما في كلمة واحدة، ويتيسر هذا الجهد العضلي بقلب أحد الصوتين إلى تلك الأصوات التي، يقتصد معها الجهد العضلي .

فعلماء العربية قد فطنوا مبكرا لهذه الظاهرة وبالتحديد في عهد "الخليل بن أحمد الفراهيدي" (ت175هـ) فقد أدركها هذا الرجل وأطلق عليها المصطلح الشائع في عصرنا غير أنه استعمل صيغة الفعل منه، فقد قال: "وأما "مهما" فإن أصلها "ماما" ولكن أبدلوا من الألف الأولى "هاء" ليختلف اللفظ[5].

"فالخليل بن أحمد" استعمل الصيغة الفعلية (يختلف) للمصطلح الذي أقره مجمع اللغة العربية في القاهرة وهو "التخالف"[6]. وتوالت ملاحظات علماء العربية بعد "الخليل بن أحمد"، من ذلك: ما ورد عن " أبي عبيدة" من أن العرب تقلب حروف المضاعف إلى ياء"[7]، وقول المبرد في حديثه عن الياء " وتبدل مكان أحد الحرفين إذا ضوعفا"[8].

يتبين من هذه الأقوال أن النحويين العرب حددوا الظاهرة باجتماع حرفين متماثلين نطقا بصوت واحد مشدد أبدل أحدهما ب(ياء) أو (واو).و كما يعتبر أيضا الدكتور "إبراهيم أنيس" من خير من صوّر واقع ظاهرة التخالف بصورة عامة بقوله: "...إننا نلحظ أن كثيرا من الكلمات التي تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة يتغير أحد الصوتين إلى صوت لين طويل –و هو الغالب– أو إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين في بعض الأحيان)[9].

ثم عرض إلى الأصوات التي تبدل، فقال: (إذا علمنا أن أشق الأصوات هي المطبقة والرخوة بوجه عام، أدركنا أن المخالفة لا تكاد تتم إلا

حين يتجاور صوتان متماثلان من أصوات الإطباق أو الأصوات الرخوة)[10].

و جاء في لسان العرب "وخبخبوا: أبردوا، وأصله: خبّبوا، بثلاث باءات أبدلوا من الباء الوسطى خاء، للفرق بين فعّل وفعلل، وإنما زادوا الخاء من سائر الحروف، لأن في الكلمة خاء، وهذه علة جميع ما يشبهه من الكلمات" [11].

و جاء فيه كذلك: "ومن العرب من يقلب أحد الحرفين المدغمين ياء، فيقول في مرّ: مير وفي زرّ: زير وفي رزّ: ريز[12]، ومن العرب من يقول: :"حنظ وليس ذلك بمقصود، إنما هو غنة تلحقهم في المشدد، بدليل أن هؤلاء إذا جمعوا قالوا حظوظ ". قال الأزهري:"و ناس من أهل حمص يقولون: حنظ، فإذا جمعوا أرجعوا إلى الحظوظ وتلك النون عندهم غنة، ولكنهم يجعلونها أصلية وإنما يجيء هذا اللفظ على ألسنتهم في المشدد نحو: الرّزّ يقولون رنز "[13].

تجليـــــــات هذه الظاهرة:

يمكن رصف ألفاظ هذه الظاهرة في مجموعات:

المجموعة الأولى: ما اجتمع في كل من ألفاظها صوتان متماثلان لا يفصل بينهما فاصل من حركة أو حرف فأبدل أحدهما بصوت آخر، فتحقق التخالف الصوتي بين المتماثلين من ذلك[14]: أترجّه واترنج، أما وأيما، خرّوب وخرنوب، دبّاج وديباج، دمّاس وديماس، دنّار ودينار، دوّان وديوان، قرّاط وقيراط.

المجموعة الثانية: ما اجتمع في كل ألفاظها ثلاثة أصوات متماثلة، أبدل الثالث منها بصوت جديد فتحقق التخالف[15].

المجموعة الثالثة: ما اجتمع في كل من ألفاظها صوتان متماثلان يحجز بينهما حاجز وعوملا معاملة المتجاورين فأبدل أحدهما وتحقق التخالف بين الصوتين المتماثلين على تباعدهما من ذلك: حداء وحداد، سادس وسادي، هذه وهذي، دهدت ودهديت، صهصت وصهصيت.

المجموعة الرابعة: ما اجتمع في كل ألفاظها أصوات متماثلة أبدلوا أواسطها من ذلك زلزل من زلّل –تجفجف من تجفّف، صرصر من صرّر، كبكب من كبّب، كركر من كرّر، تململ من تملل.

فأصل ألفاظ هذه المجموعة قد اجتمع فيها ثلاثة أصوات متماثلة مما أدى إلى نوع من ثقل النطق لذا جنحوا إلى التخالف، وهذا لكراهية اجتماع ثلاثة أحرف من جنس واحد[16].

و مثال المخالفة بين السامية الأم والعربية كلمة (شمس) فهي السامية الأولى (شمش) كما في العبرية والآرامية، والمعروف لدى علماء الساميات

أن (الشين) في السامية الأم قلبت في العربية (سينا)، ومقتضى ذلك أن تصير الكلمة في العربية سمس غير أن المخالفة بين السينين أدت إلى قلب الأولى شينا[17].

و مثل ذلك في العربية (قيراط) و(دينار) بدلا من (قراط) و(دنّار) بدليل الجمع (قراريط) و(دنانير)، ويقول المبرد في هذا: والدليل على أن هذا إنما أبدل لاستثقال التضعيف قولك دينار وقيراط والأصل: دنّار وقرّاط، فأبدلت الياء للكسرة فلما فرقت بين المتضاعفين رجع الأصل، فقلت دنانير وقراريط وقريريط[18].

و كان الناس في القرن الثاني الهجري في العراق يقولون :"في إجّاص إنجاص وفي أترجّ، أترنج"، كما كان أهل الأندلس يقولون: "كرناسة في كراسة، كما كانوا يطلقون على الأسد كلمة (عَدَنبس) بدلا من الكلمة القديمة (عدبّس) وكانوا يقولون تقعور بدلا من الفعل (تقعّر)"[19].

و لعلنا بقانون المخالفة نستطيع أن نفسر ذلك الإبدال الظاهري في كلمتي (زحلوفة) و(زحلوقة) فقول الأصمعي "الزحاليف والزحاليق: أثار تزلج الصبيان من فوق طين أو رمل ،فأهل العالية يقولون :" زحلوفة وزحاليف" وبنو تميم ومن يليهم من هوازن يقولون:" زحلوقة وزحاليق". فالظاهر أن الكلمة الأولى زحلوفة مأخوذة من الفعل "زحلف" الناتج بطريق المخالفة الصوتية من (زحّف) كما أن الكلمة الثانية زحلوقة مأخوذة من الفعل "زحلق" الناتج بطريق المخالفة الصوتية كذلك من الفعل "زلّق"[20].

و من قواعد الصرفيين في العربية أن الواو تقلب همزة إذا تصدرت قبل واو متحركة مطلقا أو ساكنة متأصلة نحو (أواصل) و(أواق) فإن الأصل

فيها (وواصل) وكذلك (وواق) لأنهما جمعان لكلمتي (واصلة) و(واقية) ففاء كل منهما واو، ويجري مثل ذلك في أنثى (الأول) وجمعها، فإن الأصل فيهما أن يكونا (وولى) و(وول) ولكنهما في العربية: أولى وأُوَل، وليس ذلك كله إلا أثرا من آثار المخالفة.

و من المخالفة الصوتية كذلك ما يسمى بالمخالفة الكمية بين المقاطع الصوتية ومن أمثلة ذلك ما يحدث لحركة ضمير المفرد الغائب في العربية الفصحى، فالأصل في هذه الحركة هو الضمة الطويلة ويحدث له المماثلة الصوتية مع الكسرات قبله مثل له: لهو وبه: بهي. كما تقصر حركته في العربية عن طريق المخالفة الكمية بين المقاطع فيقال مثلا: "فيه بدلا من فيهي، ومنه بدلا من منهو"[21].

و هناك المخالفة المتباعدة وتقع في الأصوات التي يفصل بينها فاصل من صوت آخر غير مناظر مثل[22]: اخضوضر ــــــ أصلها اخضرضر

اعشوشب ــــــ أصلها اعشبشب

بغداد ــــــ أصلها بغدان

و يعلل الدكتور "أحمد مختار عمر" حركة المخالفة بأنها تهدف إلى تيسير جانب الدلالة بين الأصوات ولا تلقي بالا إلى العامل النطقي الذي قد يتأثر نتيجة تباعد أو تخالف الصوتين[23].

كما يسجل الدكتور "إبراهيم أنيس" أن المخالفة قد تكون في النادر من الأحيان بين الأصوات الشديدة مثل[24]:

إجّاص ــــــ روي فيها إنجاص

دبّوس ــــــ روي فيها دنبوس

لعلّ ـــــــــــــ روي فيها لعنّ

و "ابن جني" يشير إلى ما سماه (إحالة الصنعة) فيقول في الخصائص:"و من ذلك قول العرب قصيت أظافري من لفظ قصص وقد أل بالصنعة إلى لفظ قصي"، وكذلك قوله: "تقضيّ البازي" إذ البازي كسر" وهو في الأصل في تركيب (قضض) ثم أحاله ما عرض من استثقال تكريره إلى لفظ (قضي)(25).

و كما تتأثر الصوامت بعامل المخالفة كذلك هي الصوائت، حيث تجري وفق قوانينها، ولعل الغاية من ذلك تحقيق التيسير النطقي في أقصى درجته حين الابتعاد عن النطق المتوالي لحركات متحدة الصيغة البنائية. فجمع المؤنث السالم يأتلف بإضافة صائت طويل مع التاء الشديدة المهموسة (آت)، وقد أثر عن العرب في تقعيدهم لهذا النوع من الجموع أنه ينصب بالكسرة نيابة بدلية عن الفتحة، وإنه تتساوى فيه حالتا النصب والجر. ولعل السر فيما يبدو هو تلك المتوالية التركيبية من الفتحات التي غيرت متجهةمن الاستعلاء إلى الاستفال(26).

خاتمـــــة:

من خلال ما سبق نلاحظ أن ظاهرة التخالف الصوتي تحقق للمتكلم سهولة النطق والاقتصاد في الجهد ،لأن نطقه بالصوت المضاعف يتطلب مجهودا عضليا أكبر مما لو قُلب أحد الصوتين إلى صوت مد، أو صوت من الأصوات الشبيهة بها كما يرى فندريس:"أن يعمل المتكلم حركة نطقية مرة واحدة وكان من حقها أن تُعمل مرتين"(27).

و يبدو هو ذا السبب في عزوف المتكلمين عن بعض الصور النطقية إلى أخرى سواها، سعيا وراء تحقيق مبدأ السهولة والتيسير. فيُنظر إلى هذه الظاهرة على أنها الوضع الأمثل اللازم لإعادة الخلافات بين الأصوات، الأمر الذي لا يمكن الاستغناء عنه في إظهار قيم الفونيمات الاستقلالية، وهو أمر ضروري لتحقيق حالة التوازن وتقليل المد التأثيري للمماثلة.

هوامش و مراجع

(1)صبيح التميمي، دراسات لغوية في تراثنا القديم، صوت صرف نحو دلالة، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2003، ص176.

(2)ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط2، 1956، ج2، ص231.

(3)المصدر نفسه، ص90.

(4)المصدر نفسه، ص232.

(5)الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق د مهدي المخزومي، بغداد، 1986، ص358.

(6)الأصوات اللغوية،عبد القادر عبد الجليل ، ص 67.

(7)ابن السكيت، الإبدال، ص133.

(8)المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، القاهرة، 1963، ج1، ص200.

(9)إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، القاهرة، 1995، ص214.

(10)المرجع نفسه، ص213.

(11)ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ ب ب) ج1، ص333.

(12)المصدر نفسه، مادة (زور)، ص425.

(13)المصدر نفسه، مادة (ح ظ ظ) ج9، ص319.

(14)الأصوات اللغوية،عبد القادر عبد الجليل، ص69.

(15)المرجع نفسه، ص70.

(16)المرجع نفسه، ص73.

(17)رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره علله وقوانينه، دار الرفاعي، الرياض، ط1، 1989، ص37.

(18)المبرد، المقتضب، ص24.

(19)أبو بكر الزبيدي، لحن العوام، تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، القاهرة، 1967، ص35.

(20)رمضان عبد التواب، التطور اللعوي. ص40.

(21)رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص44.

(22)عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 98، ص297.

(23)أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، القاهرة، 1991، ص384.

(24)إبراهيم أنيس، الأصوات للغوية، ص214.

(25)ابن جني، الخصائص، ص90.

(26) عبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللغوية، ص295.

(27) فاندريس، اللغة، ص94. نقلا عن: صبيح التميمي، دراسات لغوية في تراثنا القديم، ص176.